الجـزء الثـاني

إعـلان عجـز السـيادة

لم يعد من الممكن اليوم المراوغة بشأن السيادة - أو يمكن ذلك بصورة ضعيفة للغاية ... إن لفشل تصفية الاستعمار علاقة كبيرة بهذا الأمر. في حين كان يجب على حركة تصفية الاستعمار الكبرى تمجيد السيادة التي أصبحت أخيراً عامَّة، إلا أن الوهم لم يصمد عشر سنوات: سرعان ما تلاشت يقينيات مذهب التطورية لكي تخلي مكانها لطغام السيادات خائرة القوى. ليس المقصود عودة التبعية، وتوطُّد الاستعمار الجديد وحسب، بل وإعلان الجماعة الدولية صراحة بإفلاس دول. ليس المقصود الدول التي تنهار وحسب، بل والأمم التي تشرد بعيداً عن الدروب السياسية، وتقيم معازل «جيتو»، وتذوب في هندسة المساحات الثقافية المتحركة عابرة الأوطان. هكذا تنمحي السيادات أو تصاب بالإحباط تباعاً[1].

في الواقع أن الأمر يضغط على النظام العالمي بأكمله. إن التقلبات القادمة من الجنوب، والتي تنتشر على المستوى العالمي بسرعة شديدة، تمتزج مع فكرة مبتدعة لافتة للنظر: الاعتماد المتبادل لا ينحصر في مهمته التي ينهض بها على الدوام من أجل تقويض التصوُّرات القديمة والممارسات حديثة العهد؛ فهو يجمع، ويوحِّد، ويقلب أوضاع الحدود والنظم، يغيِّر السلوكيات، ويمحي ويعيد الإعداد والتكوين. وهو يعلِّم الفاعل، أيّا كان هذا الفاعل، بأن يفهم تماماً الموضوعات التي لم تعد بالضرورة تندرج في محيط السيادة التي كانت فيما مضى تحدد اختصاصاتها أو انتماءاتها؛ ويدرب الفاعل أيضاً على أن ينظر أمامه لا فوقه، وأن يتصوَّر أفعاله من خلال نتائجها وليس من خلال توافقها الصارم مع نتاج السيادة. وفي هذا

(١) حول البعد الاجتماعي ـ التاريخي لهذا الموضوع، نحيل إلى كتابنا «الدولة المستوردة - تغريب النظام السياسي، ترجمة لطيف فرج، دار العالم الثالث، ١٩٩٦.

الشأن يقوم الاعتماد المتبادل بإحداث «جماعات مسئولية» متعددة، متغيِّرة، كبيرة أو صغيرة، على المستوى العالمي الذي تتم إقامته أوالمستوى المحلي الذي يتم الاهتداء إليه. هكذا يخلق موضوع حقوق الإنسان العالمي جماعة كونية للمسئولية، في حين أن موضوع تنمية بحر اليابان مثلاً يثمر جماعة ذات طبيعة مماثلة، لكنها، في هذه المرة، إقليمية وعابرة للأوطان؛ كما أن التغييرات العميقة في إحدى المدن، بل وفي أحد الأحياء، تنفتح على إنشاء جماعة ثالثة، وتُشرك فاعلين سياسيين واقتصاديين واجتماعيين في إعادة تحديد المحلي. في مواجهة تزايد تأثير جماعات المسئولية هذه، التي يتجمع داخلها الفاعلون الفرديون والجماعيون لكي يواجهوا مجازفات محددة، طارحين في الوقت نفسه مبدأ تضامنهم، وواجبهم بالعمل في تناسق، وفي هذه المرة، يبدو مبدأ السيادة بأنه يعاني من أكبر الصعوبات لكي يتكيف ولكي يعود للانتشار من جديد.

* * *